الفصل الأول

الأساس النظري

١- المقدمة

أشارت العديد من الدراسات القديمة والحديثة إلى العلاقة الموجبة بين التحضر وزيادة نسبة الجرائم. وقد حاول الباحثون تفسير هذه العلاقة كل حسب تخصصه العلمي ومنهجه الفكري. ولسنا هنا في معرض الرد أو التأكيد على هذه النتيجة، بل توضيح العلاقة بين التركيب الإجتماعي- الإقتصادي للمدينة والتغاير المكاني لحدوث الجريمة. فهم هذه العلاقة قد يساعد في إستيعاب التفسير البيئي لتركز الجريمة في مناطق دون غيرها، ويكون أساساً لرسم السياسات الإجتماعية المناسبة لحل مشاكل المجتمع الحضري. سنعرض في هذا البحث الجانب النظري للموضوع مع عرض لحالات دراسية (نماذج) من الدول الغربية وما تيسر عن مدينة عراقية.

ب- الهدف والمنهج

في هذا المؤلف نقدم عرضا مبسطا ومقتضباً لبعض مناهج دراسة التركيب الإجتماعي للمدينة، مع تلخيص لابرز النتائج التي توصلت إليها الدراسات عن الجريمة وتعليلها، وذلك لتسهيل مهمة الباحثين المعنيين بتحليل المشاكل الإجتماعية وتفسر توزيعها المكاني في المدينة على أسس بيئية.

ج- الأساس النظري

لدراسة التركيب الإجتماعي- الإقتصادي للمدينة أعتمد متغير السكن كعامل رئيسي Key Factor, (Bourne 1981) لأن المدينة كلوحة مجسمة عناصرها الأساسية هي الأنماط السكنية (Robson 1975). وقد جذبت الأنماط السكنية الباحثين من مختلف التخصصات العلمية لدراسة تركيباتها العمرانية والسكانية (ديموغرافيه) والإقتصادية والإجتماعية والبيئية، وظهرت مصطلحات جديدة مثل البيئة العمرانية، البيئة الإجتماعية، البيئة الطبيعية (Jones & Eyles 1979). وقد عدت الأنماط السكنية والبيئات التي تحتويها كنتائج لمجموعة من العوامل والعمليات Processes المتداخلة المتفاعلة مع بعضها.

لقد جاءت معظم الأفكار البيئية الأساسية عبر بحوث علماء الإجتماع كمحاولات لاستجلاء الخارطة الإجتماعية للمدينة. ولما كانت الجغرافيا العلم الذي يدرس الإنسان ونشاطه ضمن بيئته (الطبيعية، العمرانية، الإجتماعية Human Ecology) لذا فقد تقارب المنهج الإجتماعي المنهج الجغرافي عند دراسة البيئة الحضرية وذلك لتشابه الهدف والعديد من المتغيرات المتعددة (Herbert & Johnston 1978). الهدف هو تحديد المناطق الإجتماعية في المدينة وتحليل خصائصها. إضافة إلى هذا، إهتم علماء الإجتماع باستعمالات الأرض في المدينة وعلاقتها بالانماط الإجتماعية، وهذه مفردات لا يستغني عنها الجغرافي عند دراسته شكل المدينة Morphology ووظيفتها. وقد نتج عن الإهتمام المشترك هذا مسميات مثل المناطق الطبيعية و المناطق الإجتماعية وبرز نوع جديد من التحليل عرف بـ(تحليل المناطق الإجتماعية . Social area analysis). كما أدى هذا الإهتمام المشترك إلى تطوير تقنيات البحث المعتمدة واعتماد تقنيات جديدة.

لقد مر علم البيئة الحضرية بثلاثة أطوار: إمتد الطور الأول خلال عقدي العشرينيات وثلاثينيات هذا القرن حيث سادت مدرسة شيكاغو البيئية، وامتد الطور الثاني حتى عقد الخمسينيات وامتاز بتوجيه النقد لمدرسة شيكاغو وقد بقيت العديد من الأسئلة التي أثيرت خلال هذه المده دون إجابات شافية. وفي الطور الثالث أعيد النظر بالمنهج وتم تطويره على الرغم من كل ما قد قيل عنه سابقاً.

لازال هذا المنهج في نظر الباحثين هو الأفضل لدراسة المدينة كنظام حي Open system ولفهم مشاكلها (Johnston 1978). لقد هدفت مدرسة شيكاغو البيئية إلى دراسة التغاير الإجتماعي في المدينة معتمدة مفاهيم أخذتها عن علوم الحياة Biology محاولة إيجاد مشابهات لها في البيئة الحضرية. وقد نظر إلى المدينة ككائن إجتماعي حي ينمو ويتفاعل ويتأثر. لقد تأثر بارك Park، كغيره، بافكار دارون وقال بأن للانماط Patterns والعلاقات في البيئة الحيوية ما يقابلها في المدينة من استعمالات أرض ونشاط سكاني. وتعود أهمية هذا التشابه في النظرة إلى المدينة وعناصرها إلى بساطة النموذج الذي جاء به بارك ومنطقيته، لقد افترض بارك وجود مستويين في المجتمع، المستوى التكافلي الذي يمثله المجتمع الصغير (الجماعة Community)، والمستوى الثقافي

1975الحضاري Society (Robson). وقد ركز البيئيون الحضريون على مفهوم الجماعة وإحتمالات تناظرها مع مثيلات في علوم الحياة.

لقد حاول مكنزي إيجاد التشابه بين المدينة والبيئة الحية حيث يعكس التنظيم الإجتماعي للمدينة العلاقات المكانية بين سكانها، وقد فهم التنافس الحيوي بين الكائنات كنظير للتنافس الإقتصادي حيث تتنافس إستعمالات الأرض على الخير والمكان. كذلك نظر إلى المجموعة البشرية التي تسكن منطقة جغرافية محددة كمجموعة تسود بينها علاقات تكافلية. ولهذه المجموعة عمليات Processes وعلاقات بيئية واجتماعية، ولها تنافسها مع مجموعات أخرى، وقد تنعزل مجموعة معينة ضمن المجموعة الكبيرة. ومن العمليات البيئية المعقدة ما يعرف بالتغلغل والانتشار والتي تحدث عند حركة مجموعة داخل مناطق مجموعة أخرى وصولاً إلى السيادة على تلك المنطقة. وقد عدت عمليات التغلغل والإنتشار والسيادة كبداية ونهاية لدورة تمر بها استعمالات الأرض ومجتمعات المناطق السكنية (Bourne 1981). إضافة إلى هذه المصطلحات، استعار البيئيون الحضريون مصطلحات أخرى مثل التركز والمركزية، وهذه لها معانيها الإقتصادية عندهم.

لقد وردت المفاهيم البيئية الأساسية في نموذج برجس المعني بهيكل التنظيم المكاني لاستعمالات الأرض في المدينة (على شكل نطاقات متراكزة)، كما وجه برجس نقداً إلى مدرسة شيكاغو البيئية في المجالين النظري والتطبيقي لإهمالها أثر القيم الحضارية في تشكيل المناطق الإجتماعية. فالتنافس في البيئة الحية يختلف عن تنافس الافراد في مجتمع المدينة وذلك لوجود قيم وأعراف إجتماعية (Jones & Eyles 1979). وفي المجتمع البشري يبرز أثر العوامل الثقافية والحضارية على نشاطه وفعالياته ولهذه أثرها في تشكيل الانماط المكانية في المدينة.

بتعدد الدراسات الحضرية البيئية تباينت المعايير المعتمدة في تحديد الأنماط الإجتماعية وتنوعت. ومن خلال النقد الموجه لنموذج برجس توصل هومر هويت إلى نموذج القطاعات الممتدة مع طرق المواصلات الرئيسية من مركز المدينة باتجاه أطرافها. إن نموذجي برجس وهويت معنيان أصلاً بتطور تركيب

إستعمالات الأرض في المدينة وليس بالأنماط الإجتماعية فيها. مع هذا، كلاهما يساعد في فهم تركيب المدينة وإستشفاف الأنماط فيها (Ley 1983). بعد هذا خرج هرس وأولين بنموذج تعدد النويات في المدينة الواحدة ولم يولي البيئيون هذا النموذج إهتماماً (Robson 1975).

نستخلص من هذا أن البيئيون الحضريون لم يتوانوا عن الإستفادة من الجديد في العلوم المختلفة، خاصة خلال المدة الممتدة بين عشرينيات وأربعينيات هذا القرن. فقد أخذوا مفاهيم ومصطلحات واعتمدوا تقنيات نمت وتطورت في العلوم الأخرى وسخروها لدراسة البيئة الحضرية المتحركة مع تحرك وتطور الحياة الإقتصادية والتقنية والحضارية لمجتمع المدينة.

إن خوض موضوع العلاقة والتداخل بين الجغرافيا وعلم والإجتماع وأخذهما الكثير من مفاهيم علوم الحياة وتقنياتها أمر خارج إطار هذا (المؤلف) ما نهدف إليه، كما أشير سابقاً، تلخيص بعض مناهج البحث المعتمدة في تحليل التركيب الإجتماعي للمدينة.

د- مناهج تحليل التركيب الإجتماعي للمدينة،

بتعدد فروع العلم المعنية بدراسة المدينة تعددت مناهج البحث، مع تباين واضح في التركيز على نوع دون آخر من المتغيرات أو المؤشرات. ما يهمنا هنا المناهج الأكثر إعتماداً من قبل الجغرافيين (والمعنيين بالتفسير البيئي للجريمة) عند دراستهم مشاكل المدينة وتعليل توزيعها المكاني.

أ) تحليل المناطق الإجتماعية،

يؤكد العديد من مفكري علم الإجتماع على أن المجتمعات البشرية عندما تكبر ويزداد عدد أفرادها تميل إلى التوزع إلى مجاميع صغيرة للسكن والمهنة، ومرد ذلك المنافسة بين الأفراد والمجاميع وما تتطلبه من حاجة إلى الحماية والدعم من المجموعة التي ينتمي إليها الفرد (Jones & Eyles 1979). يعني هذا أن الفرد يختار وينتقي المجموعة التي ينتمي إليها وبالتالي المنطقة التي يقطنها لهذا السبب ظهر من يقول: قل لي أين تسكن أقول لك من أنت (Ley 1983) أي إن مكان سكن الإنسان مؤشر على موقعه في السلم الإجتماعي بعبارة أدق، وجود سلم

تراتبي إجتماعي يتوافق معه سلم تراتبي للمناطق السكنية (في المدن الكبيرة بصورة خاصة). لهذا السبب قام العديد من الباحثين بدراسة التركيب الإجتماعي- الإقتصادي- للمدن سواء في الدولة المتقدمة أو النامية.

كان الهدف الأساسي لهذه الدراسات تحديد التباين المكاني للتركيب الإجتماعي- الإقتصادي للمدينة. وقد بدأ هذا المنهج وصفيا أول الأمر، إلا أنه وجه واستثمر في فهم واستيعاب المشاكل التي تعاني منها المدينة، واستفيد منه في رسم السياسات والعلاجات الإجتماعية لهذه المشاكل (Johnston 1978) لقد اعتمد شفكي طريقة تصنيف الوحدات الإحصائية ED (التي تجمع على أساسها المعلومات الإحصائية في التعدادات الرسمية) في ضوء ثلاثة مؤشرات لتحديد التباين الإجتماعي- الإقتصادي لسكان المدينة وقد بوب الوحدات الإحصائية المتشابهة في قيمها (قراءاتها) مع بعضها لتشكل مناطق إجتماعية، وبهذه الصيغة برّز شفكي الأنماط الإجتماعية مكانيا في المدينة (Robson 1975)" بانتشار إستخدام الحاسوب أخذ الباحثون باعتماد تقنيات تصنيف أكثر تقدما مثل تحليل العامل الرئيسي PCA أو Factor Analysis والتقنيات الأخرى المشابهة والمؤدية لذات الغرض (تصنيف موضوعي متعدد المتغيرات للمناطق).

لقد اختلف الباحثون في تفسير التباين الإجتماعي المكاني في المدينة. فقد أرجع هذا التباين إلى الهجرة من الريف إلى المدينة وزيادة عدد سكان المدن. كما عد تباين الكثافة سبباً في تباين طرز الحياة الحضرية وما ينجم عنه من تغاير إجتماعي واعتبر البعض الآخر أن العملية ناتجة عن تباين في الخبرة وتنظيم النشاطات المنتجة والتباين في تركيبة السكان. يؤدي تباين الخبرة إلى تراتب المجاميع الإجتماعية طبقا لحالتها الإجتماعية-الإقتصادية التي تحددها طبيعة المهن التي يمتهنوها ويصاحب التباين في تنظيم النشاطات الإجتماعية تباين في طرز الحياة. وينتج عن التباين في التركيب السكاني بروز مجاميع معينة على أسس عرقية أو دينية (Ley 1983)" لقد إعتمد شفكي هذه الفكرة كهيكل يحدد في ضوءها المؤشرات التي يستخدمها لتمييز المجاميع الإجتماعية في المدينة وأسفرت دراسة شفكي عن ثلاثة جوانب مهمة هي:

(أ) التراتب الإجتماعي، ويؤشر الحالة الإجتماعية-الإقتصادية لسكان المدينة

. Social Rank .

(ب) التحضر، ويقيس الحالة العائلية Urbani atoion .

(ج) العزلة، وتؤشر التمركز العرقي أو الديني في مناطق Segregation معينة من المدينة (Robson 1975) .

لقد وجه نقد إلى طريقة تحليل المناطق الإجتماعية فهناك من لا يعتقد بوجود هيكل (أساس) جغرافي لهذه المناطق وشكك البعض الآخر في فاعلية تحويل سيادة عدد أو عرق معين من السكان في المدينة عموما إلى تباين في مناطقها الصغيرة. ولم يقتنع عدد من الباحثين بأن تحليل المناطق الإجتماعية يؤدي إلى تفسير الأنماط الإجتماعية بل ينحصر التحليل في تحديد المناطق الإجتماعية وفي ضوء هذا النقد جرى تعديل على المؤشرات المعتمدة في التحليل. لقد عد البعض التصنيع والتحضر كأسس لتصنيف المناطق الإجتماعية وتحليلها فالتصنيع يؤشر الحالة الإجتماعية ويقاس بالمهنة والمستوى التعليمي، وتتحدد الحالة العائلية بدرجة الخصوبة ونسبة النساء في قوة العمل. أما التحضر فيقاس بالهجرة التي تحسب على أساس مسقط الرأس والتركيب العمري والجنسي للسكان. وتؤشر الحالة العرقية الحالة الحضارية أو المستوى الحضاري للأقليات القومية والدينية (Jognston 1978). ولم يتوقف النقد، كذلك تطوير هذا المنهج.

خلاصة القول، إن تحليل المناطق الإجتماعية قد اعتمد بصورة واسعة لتحديد أنماط التباين المكاني قصد التصنيف الإجتماعي وليس التوزيع الجغرافي، وترجع أهمية هذه الطريقة للجغرافيين إلى أنها تعتمد بيانات مأخوذة على أساس وحدات مكانية صغيرة ينتج عنها أنماطاً جغرافية. إضافة إلى هذا، أثبتت الدراسات صحة العلاقة بين التراتب الإجتماعي والتحضر (Jones & Eyles 1979).

٢) تحليل العامل البيئي،

يؤمن العديد من الجغرافيين بأن الثورة التي حدثت في دراسة المدينة مرجعها الأساس إعتماد تقنيات متطورة وليس شيئاً آخر (Johnston 1980). ومن هذه التقنيات مجموعة التحليل العاملي Factor analysis Family تعتمد هذه الطريقة

لتأشير جانبين: خصائص المجال الإجتماعي Social Space غير المكاني وأنماط الحيز الجغرافي geographical Space المكانية. وقد عدت هذه التقنية مفيدة من قبل معظم الباحثين لانها تتساعد في تفسير أنماط العلاقات بين المتغيرات حسب هذه الطريقة يتم تكتيل المتغيرات ذات العلاقة مع بعضها لتشكل عوامل Factors أو أبعاداً Dimensions (العمر ١٩٩٠ أ) فمثلاً قد تنتج أربعة عوامل عن تحليل (٣٤) متغيرا ولهذا تسهل عملية تفسير الأنماط المكانية وغير المكانية لهذه العوامل، بينما يكون الأمر صعبا عند تفسير ال(٣٤) متغيرا منفرده وقد تبدو هذه العملية سهلة أول الأمر إلا إنها أكثر تعقيدا، في الواقع. ولا يتوقع أن تصل إلى ذات النتائج عند اعتماد ذات المتغيرات في مدن مختلفة، إذ يعكس التحليل العاملي الأنماط الموجودة في البيانات الخاصة بكل مدينة كما هي فلكل مدينة أنماطها المكانية الخاصة بها (Beshers 1977). تكمن الصعوبة الأخرى في اختيار المتغيرات للتحليل لانها تحدد النتائج، ولهذا تختار المتغيرات بعناية فائقة لتخدم أهداف البحث بصورة مباشرةً وتساعد في الاختيار معرفة الباحث بمنطقة الدراسة وخبرته البحثية في موضوع البحث (Johnston 1980). على الباحث أن يتجنب المتغيرات التي تشكل مع بعضها نسبة (١٠٠٪) وأن يقوم بتغير القيم Standariza-tion قبل تحليلها (العمر ١٩٩٠ أ). يساعد الباحث في الوصول إلى نتائج دقيقة وموضوعية صغر مساحة الوحدات الإحصائية التي تجمع على أساسها المتغيرات. فمع المساحات الكبيرة تبرز نتائج مشوشة يصعب تفسيرها. ويفترض أن ترسم حدود هذه الوحدات لتضم مجتمعات تفسيرها ويفترض أن ترسم حدود هذه الوحدات لتضم مجتمعات بشرية محلية متجانسة نسبيا (Bassett & Short 1980). لفهم أفضل لنتائج تحليل العامل البيئي من الضروري عرض موجز لنموذج أو أكثر عن دراسات حضرية اعتمدت هذه التقنية.